

المجتمع المدني وأبعاده الفكرية

مراجعة : عبد الله بن علي العليان *

في سلسلة (حوارات لقرن جديد) اعتادت دار الفكر بدمشق وبيروت إصدار كتب تناقش موضوعات جديدة وخلافية، إسهاماً منها في القضايا العالقة وفتحاً لآفاق جديدة للتثاقف والحوار، وطريقة تلك السلسلة أن يكتب كاتب عربي في موضوع معين، ويتلوه كاتب آخر في الموضوع نفسه، ثم تعمد الدار لإرسال الأطروحتين لكل من الكاتبين، ليناقش أحدهما الآخر، ثم تنشر ذلك كله في كتاب واحد، وقد صدرت في السلسلة حتى الآن عشرات الكتب، وطبع بعضها أكثر من مرة.

قال الأستاذ الحبيب الجنحاني (وهو مؤرخ تونسي، ودارس للعلوم الاجتماعية في ألمانيا): إن المجتمع المدني مفهوم جديد على المجتمع الثقافي العربي. وأصل المفهوم فلسفي وسياسي أوروبي، يُعنى بالمشاركة المدنية للمجتمع وهيئاته الخاصة، وفئاته المتميزة، في الاهتمام بالشأن العام، وبالمصالح للفئات المختلفة في الوقت نفسه، والمفهوم أن ذلك يتم تحت سقف النظام العام للمجتمع، ولكن من خارج المؤسسات الدستورية الرسمية، وقد ركز بعضهم على الطابع المعاد والممانع لسلطة النظام والدولة؛ بينما ركز بعضهم الآخر على الطابع المشارك والضابط والمتفاعل داخل الفئات المدنية نفسها، ثم مع النظام الرسمي، ويذهب الجنحاني إلى أن المفهوم الهيجلي للمجتمع المدني فلسفي ومثالي، في حين أعطاه ماركس طابعاً سياسياً وصراعياً، أما نقولا عزامشي -الفيلسوف الماركسي الإيطالي- فقد رأى في المجتمع المدني إمكانيات ممانعة من جانب الفئات الاجتماعية المدنية ضد السلطة الغاشمة للنازية والفاشية، وكانت تلك طريقته للقول بتجاوز الأنظمة الشمولية التي بدا لأول وهلة أن الجماهير هي التي أوصلتها للسلطة، وقد عمدت الفئات المحافظة إلى استخدام المفهوم في السبعينات والثمانينات في شرق أوروبا لمصارعة الأنظمة الشمولية (دولة أقل، مجتمع مدني أكثر) أما اليوم أو في السنوات الأخيرة فقد عادت القوى البادية والمستضعفة إلى استخدام المفهوم في وجه السلطات أو الأكرليات الجماهيرية، بيد أن الكاتب الآن المفهوم الليبرالي بشقية الاقتصادي والسياسي للمجتمع المدني.

وقد عاد الجنحاني في خاتمة مداخلته لمعالجة المسألة في نطاق الاجتماع العربي الإسلامي، فذكر أن العرب والمسلمين لم يعرفوا تفرقة واضحة بين الدولة والمجتمع المدني قبل منتصف القرن التاسع عشر، وهذا وإن كانت المدنية الإسلامية قد عرفت تنظيمات مهنية وتيارات سياسية دينية مستقلة عن الدولة. وفي تعقيبهِ عن رؤية سيف الدين عبد الفتاح لمفهوم المجتمع المدني قال: إن مفهوم المجتمع المدني قد تحول إلى

مفهوم كوني رغم نشأته الغربية، ومحاولة إيجاد بديل له في المناطق الأخرى غير العربية، وبينها المنطقة العربية الإسلامية بحجة أن المفهوم منقول إليها بشكل تعسفي، ودون توافر شروطه التاريخية في هذه المناطق ويلاحظ الجحاني في معرض كتابه، أن سبعينات القرن العشرين شهدت رواجاً لمفهوم وشعارات المجتمع المدني باعتبار ذلك السبيل الوحيد للتحول نحو الديمقراطية، وما يزال المفهوم مستعملاً بهذا المعنى حتى اليوم، وهو في هذا الصدد يعتبر أن التنظيمات التقليدية (المجتمع الأهلي) هشة، ولا يمتلك مشروعاً تغييرياً ولذلك لا يعتبرها من قوى المجتمع المدني.

وعلى هذه النقطة بالذات يركز الدكتور سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل (أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة) أي أنه يتناول بالنقد تلك التفرقة بين المجتمع المدني (الفئات الاجتماعية الحديثة مثل الأحزاب والنقابات وجمعيات حقوق الإنسان والمرأة) والمجتمع الأهلي (جمعيات الأسر، والجمعيات الخيرية، والأوقاف، والزكاة.. إلخ)، ووجهة نظره التي دلت عليها في بحث طويل أن اعتماد الصيغة الغربية المعاصرة لمفهوم المجتمع المدني يرتب آثاراً من الخطورة بمكان: تقسيم المجتمع، وإخراج فئات مهمة فيه من دائرة التأثير والفعل، ومعادات الدين أو اعتماد فكرة الصراع بين الدين والدولة، ولذلك فهو يدعو إلى قراءات التكافل والتكامل من جهة، وللالتزام بالمؤسسات الدستورية، وفكرة الديمقراطية الأكثرية، وهو يعتبر أن فكرة مالك بن نبي حول شبكة العلاقات الاجتماعية المتضامة والمتوازنة تشكل بديلاً صالحاً لمجتمع واحد متضامن رغم تفاوت المصالح والاهتمامات.

إن كتاب (المجتمع المدني وأبعاده الفكرية) يطرح الكثير من التساؤلات حول أهمية المجتمع المدني أو الأهلي بغض النظر عن المسميات والمصطلحات وأثره الكبير في تفعيل دور المؤسسات المستقلة لبناء وعي اجتماعي وفكري، يساهم في تأسيس مفاهيم تتسم بالحراك العقلاني والنشاط المقتن الذي يبعد الاحتقان السياسي، ويعزز ثقافة الديمقراطية الواعية التي تساهم في بنائها المجتمع المدني أو الأهلي.

(* كاتب وباحث عُماني.